



معهد الفكر الإسلامي ديوبند

Deoband Institute of Islamic Thought

الإمام النانوتوي كبان أول لعلم الكلام الجديد في ضوء

خدماته

محمد سجاد بن محمد يونس

©Deoband Institute of Islamic Thought, April 2014

An Islamic Think-tank

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام النانوتوي كيان أول لعلم الكلام الجديد في ضوء خدماته

ملخص البحث

الإمام قاسم النانوتوي اسم مشهور في حلقنا العلميّة، كلّ منّا يتذكره بكلّ إجلال وإكرام، وكيف لا؟ وإنه من ساهم في تحرير شبه القارة الهنديّة، وهو الذي قام بحفاظ كيان الإسلام في هذه الديار من أيدي الأشرار، وهو ممن ساهم في بناء الحصون المشيّدّة للحفاظ على التهذيب الديني والتعاليم الإسلاميّة، التي تعرف الآن بـ"المدرسة الإسلاميّة". هذا هو تصوير هذا الشيخ المعروف فيما بين الناس، والحقيقة أن له وجه سواه، فهو محدّث كبير، ومعلّم ناجح، ومناظر بارع، ومتكلم قدير، أما الأول؛ لأنه أنفذ طريقاً لدرس الحديث في شبه القارة هذا، الذي نفتخر به اليوم، وأما الثاني أنه صنع رجال العلم والحكمة بتعليمه الناجح، وأما الثالث، أنه ناظر مع أهل الديانات الباطلة حين احتيج إليها، وأهزمهم هزيمة نكرى، حتى خلّوا سبيل المسلمين في هذه الديار الهنديّة، وأما الرابع؛ لأنه لما رأى بعين قلبه تغيّر رجحان أهل زمانه، غيّر هو أيضاً في أسلوب الدعوة، فما اختار طريق النقل محضاً، الذي لا يقبله أهل الباطل، ولا طريق العقل فقط، حتى يخطأ فكره بمرور الزمان، بل إنه أوجد طريقاً أنيقاً في هذا المجال وهو طريق الحسيّات والمشاهدات، الذي لا يسع لأحد أن ينكره ممن له أدنى خردل من إنصاف. وهذا الطريق هو طريق علم الكلام الجديد، فيقال أن له إسهامات لا تنكر في علم الكلام الجديد. وهذه الحقيقة كنت أتعرّض أن أثبتها عبر هذه المقالة، بالمنطق والدلائل. فأولاً وضّحت عنوان المقالة، بأن ذكرت لذلك نبذة من أحوال الإمام النانوتوي، ثمّ شيء مفصّل عن علم الكلام، وتاريخه، من القديم إلى الجديد، وفي هذا الجزء تظهر قوّة التخليق الباحث حيث أتى فيه بأشياء لم يسبقه أحد بأسلوب اختاره الباحث، ثم ألقى ضوءاً على روح هذه المقالة فأثبت المناسبة وعلاقة علم الكلام الجديد، بالإمام النانوتوي، وعرف كلام النانوتوي، وميزاته، ومناهجه، كلّ ذلك بالدلائل والشواهد. أخيراً عيّن الباحث كتبه - الذي صنّف على هذا الموضوع، وعرفها، وأحسن في هذا بأن رتب علم الكلام بترتيب على ضوء كتب الإمام النانوتوي الكلاميّة. وختم بحثه بتوصية الشيخ محمود حسن المعروف بـ"شيخ الهند" القيّمة، الذي يعرف بها أهميّة الحكمة القاسمّة هذه. وأسأل الله العظيم أن ينفعنا بهذه المقالة القيّمة، يجعلها خالصاً لوجهه الكريم، ويعدّها في ميزان حسنات الباحث. آمين يا ربّ العالمين.

الحمد لله الذي أعطى الإنسان نعمة الكلام، ليُبَلِّغَ به ما أوجب عليه من الإسلام، والصلاة والسلام على من أَدَّى الأمانة، وبلَّغ الرسالة بواسطة الكلام، فمن قَبَلَهَا أَمِنَ من الفتن الظلام، وعلى آله وأصحابه الذين بذلوا أقصى جهودهم في نشر كلام الأمن والسلام، وعلى عباده المخلصين الذين جَدَّدوا علم الكلام، حسب ما اقتضاه الزمان، لإصلاح الأمة على نيّة رضَى من ربّ الكلام.

المقدمة:

أما بعد! فدين الإسلام عبارة عن نظام كامل للحياة الإنسانية، اختاره الله 1 للناس، قال الله 1: ((إنّ الدين عند الله الإسلام))⁽¹⁾، وهو الطريق الوحيد للوصول الى الله 1. فغرض الحياة الإنسانية الوصول إلى الربّ 0، والطريق الموصل اليه هو طريق دين الإسلام لا غير.

لكن لم يكن سهلاً أن يصل الناس إلى هدفهم دون مرشد، فأرسل الله 1 هادياً حسب ما تقتضيه الطبيعة في كلّ زمان ومكان، يقال له في اصطلاح الشرع "النبيّ أو الرسول". فختمت هذه السلسلة بمحمد-صلوات الله وسلامه عليه-؛ فهدى الناس في حياته من خلال أفعاله وأقواله إلى طريق يوصلهم إلى ربهم الصمد، و عند ما أراد ربّه أن يذهب به إليه فوّض هذه الأمانة إلى من ينوب منابه من العلماء، وترك لهم شيئين يدلّانهم في هذا المجال: الكتاب والسنة.

من المسلّمات أنه لا يوجد في الدنيا شيئين إلا أن يعارض أحدهما مع الآخر، فالحق يعارضه الباطل، والنور تخالفه الظلمات، فالإسلام وُجد مع ما يخالفه من يوم الابتداء إلى حدّ الآن. فكان هدف الباطل أن يطفئ نور الإسلام خلال هذا السفر الطويل وما زالت محاولاته حثيثةً في زماننا، وستستمر هذه المحاولات حتى يأتي يوم الفرقان. لكن يحفظ أهل الإسلام، تحت رئاسة العلماء. فيخيب الباطل في غرضه، ويخسر، على أنّ الباطل لا يتراجع عن محاولاته في حرب الإسلام والمسلمين، فيأتي بكلّ وسع وطاقة في مواجهة الإسلام والمسلمين، حتى يكاد الباطل أن يظهر على الحق، ويعم سحاب الانحراف سماء المسلمين. فلا يستطيع عامة العلماء أن يواجهوا هذه الحالة ويتغلبوا عليها، فينتظر فيها أهل الإسلام مهدياً ينجيهم من هذه الحالة بإذن الله 1. فيُقبِل المسلمون على الله 0، فيرسل من ينير المصباح في خضم الخن، فيفقد سفينة الأمة إلى برّ السلامة والأمان، فيغلب الحقُّ الباطل وترتفع رؤية الإسلام عاليةً حَقَّاقَةً.

(1). القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية: ١٩

ولقد واجه المسلمون مثل هذه الحالة في القرن الثامن والتاسع عشر، قرن أشرفت الأمة المسلمة على الانحطاط من كل المجالات، خصوصاً في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث حرّموا من حرّيتهم الفكرية والعملية، وخضع العالم الإسلامي كلّه للغرب بعد سنة أربع وعشرين وتسعمائة وألف ميلادية.

وحالة الهند لم تكن مختلفة عن البلاد الإسلامية الأخرى، حيث سيطر الغرب على الهند أيضاً، واستهدفوا الإسلام والمسلمين فيها كما هو دأبهم في أمكنة أخرى. فجعلوا المسلمين متخلّفين في مجال المعيشة والتعليم، واجتهدوا في محو الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية. فجاؤوا بالمعلّمين النصرانيين من لندن، ليحققوا غرضهم الخبيث، كما شجّعوا الهنادكة أن يعترضوا على عقائد الإسلام، التي تُعدُّ أصل الدين الإسلامي وأساسه. وكما أنشأوا فرقاً كثيرة لغرس بذور الشقاق والفرقة بين المسلمين. فاعترضوا على الإسلام تحت مشروع مدبر، واجتهدوا إجتهداداً بالغاً لتغيير صورة الإسلام تحريراً وتقريراً. فبدأت فتنة الإرتداد، إضافةً إلى فتن شتى.

فدبّ اليأس في نفوس المسلمين الذين كانوا مقيدين، تتلاطمهم أمواج الحيرة دون مرشد وموجّه ليخرجهم من الحالة المأساوية التي وصلوا إليها، فتجلّت قدرة الله 1، ونظر بعين العطف والرأفة لحال المسلمين فسخر لهم في أواخر القرن التاسع عشر، و أوائل القرن العشرين أبطالاً أيقظوا الأمة النائمة، فبعثوا الأجساد الميتة من رقادها، ودبّت الروح من جديد في جسد هذه الأمة، فردّوا على أعداء الإسلام والمسلمين، وبدأ دور جديد، دور ديني، دعوتي، تعليمي، وإصلاحي، فرسموا للمجتمع الإسلامي في الهند معالم مستقبل مشرق بأنوار الإيمان وهدايات الإسلام.

من هؤلاء الشخصيات الكبرى، الإمام قاسم النانوتوي - فالإمام وأصحابه كافحوا الباطل وناقضوا عن الحق في المجالات كلّها. وجاهدوا للدفاع عن المسلمين المظلومين، وناقشوا معهم لدفع سطوتهم عن أفكار المسلمين، فأعملوا القلم دفاعاً عن الإسلام، وتفنيداً لشبه الباطل، وسعيّاً لنشر الدعوة الإسلامية، وأوجدوا حصوناً تُعرف الآن بالمدارس الإسلامية - للحفاظ على الفكر الإسلامي والتعاليم الإسلامية عند الجيل القادم. وبذل الإمام النانوتوي - أكثر حياته في نشر عقائد الإسلام وأصوله في منهجية متماشية مع الحاجة الماسّة في تلك الفترة الدقيقة من الزمن.

ومن المعلوم أنّ إثبات العقائد بالدلائل والدفاع عن الشبهات الواردة عليها يسمّى علم الكلام. فكان له - خدماتٌ جليّة لا تُنسى في علم الكلام. بل إنه أوجد طريقاً متميّزاً فيه، لم يوجد قبله ولا بعده، كما يقول الشيخ شبّير أحمد العثماني - : «فرجع الآن إلى تقارير شيخ فاضل، مهما أتدبّر في تصانيفه، أُجبرُّ باعتراف حكيمته الموهبة وصدّاقه بيانه. هذا هو الفاضل الذي إن قيل فيه أنه شيخ أكبر لعهدده، إمام

غزالي زمانه، أو أنه الشاه ولي الله، لا يكون إطرأً. بل أنه يستحقها في الحقيقة. هذا هو الشيخ الفاضل، الذي دوّن طريقاً أنيقاً في علم الكلام، وهو منحوتة في الحجر ماتزال إليوم القيامة.⁽²⁾

فلا نخطيء إذ نقول: إن له إسهامات عظيمة في علم الكلام الجديد. وقد نحاول عبّر هذه المقالة أن نعرض شيئاً يتعلق بهذا الشأن. والله هو المستعان.

أولاً: أذكر

نبذة من حياته -

فهو محمد قاسم بن أسد علي بن غلام شاه الصديقي - لأن نسبه ينتهي إلى قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق Δ - النانوتوي؛ لأنه كان من سكان نانوته وهي إحدى القرى التابعة لمديرية سهارنفور، بولاية أترافرايش. يقول المؤرخ الهندي عبد الحيّ الندوي - في كتابه عن الإمام النانوتوي - : ((أحد العلماء الرثائين، ولد بـ"نانوته" سنة ثمان و أربعين ومئتين وألف.))⁽³⁾

وقد تعلّم مبادئ العلوم في قريته، ثمّ انتقل إلى "ديوبند" حيث قرأ كتباً في الفارسية والنحو والصرف على "الشيخ مهتاب علي الديوبندي" في مدرسته، ثمّ حمل إلى سهارنفور، حيث قرأ كتباً في الفارسية والعربية على "الشيخ محمد نواز السهارنفوري"، ثمّ استصحبه "الشيخ مملوك علي النانوتوي" إلى دهلي، وأسكنه في منزله حيث درس عليه "الكافية"⁽⁴⁾ في النحو، وبعض كتب المنطق والفلسفة، ودرس الصحيح للبخاري، والصحيح لمسلم، والسنن للترمذي، والموطأ لمالك، وتفسير الجلالين على الشاه عبد الغني المجددي، كما درس السنن لأبي داؤد، والسنن للنسائي، والموطأ لمالك على "الشيخ أحمد علي السهارنفوري". هذا هو خلاصة تحصيله العلوم الظاهرة، وقد تخرّج في العلوم الباطنة-التركيبية والسلوك- على "الحاج الشيخ إمداد الله" الفاروقي التهانوي -.⁽⁵⁾

ولما قامت حكومة الإنجليز على إنقراض الدولة المغولية في الهند، ناصبوا الأعداء للمسلمين فقتلوهم تقتيلاً، وخرّبوا دور العلم ومعاهد التعليم، وبثوا القساوسة والمبشرين في طول البلاد وعرضها ليحولوها إلى دولة مسيحية، وأصبح أمر المسلمين في هرج ومرج، هنالك قامت طائفة من العلماء الغيارى المخلصين، وقد

(2). محمد شبّير أحمد العثماني، العقل والنقل، [مقالات عثمانية اي مجموعة مقالات العثماني]، (دار المؤلفين، يوبي، سنة الطبع 2009)،

(3). العلامة عبد الحي بن فخر الدين الندوي، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، (دار ابن حزم)، ص 1067

(4). هذا كتاب في النحو لان حاجب، أنه كاسمه كافٍ في علم النحو، كما قيل فيه: كافيهِ كافيست ليكن مختصر، شافيه شافيست ليكن درد سر- [أي أن الكافية كافٍ في فنه، ولو أنه مختصر، والشافية شافٍ أيضاً ولو أنه مشكل التناول].

(5). محمد ساجد القاسمي، تعريب حجة الإسلام للإمام محمد قاسم النانوتوي، (أكاديمية شيخ الهند، الجامعة الإسلامية/ ديوبند، سنة

أهمهم أمر الإسلام في هذه البلاد والحفاظ عليه، ففكروا، ثم فكروا حتى ألقى الله في روعهم فكرةً عظيمةً، وهي فكرة تأسيس المدارس الإسلامية الأهلية في مشارق البلاد ومغاربها، فتقدّموا إلى مجال العمل، وكان الإمام النانوتوي - رأسهم، فأسسوا بأيديهم المباركة مدرسةً عريضةً في ديوبند، وهي تعرف الآن بالجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند.⁽⁶⁾

لما توفّي أستاذه الشيخ مملوك علي النانوتوي - غادر منزله، وعمل فترةً عمل التصحيح في "المطبعة الأحمديّة" في دهلي، ويسكن في تلك الفترة في مدرسة يار البقاء بدهلي.⁽⁷⁾

لما انفجرت ثورةً عارمةً ضدّ الاحتلال الإنجليزي في الهند وذلك عام 1857م، وعمت الهند الشمالية، ف وقعت معارك دامية مع الإنجليز، ومنها "معركة شاملي" التي خاضها الحاج الشيخ إمداد الله وأصحابه وعلى رأسهم الإمام محمد قاسم النانوتوي - وهزموا الإنجليز هزيمةً منكرةً، فاستشاطوا غضباً، فأعلنوا أنّ الحاج إمداد الله وأصحابه أعداء ألدّاء للإنجليز و ثوّار عليهم، فحاولوا القبض عليهم، فهاجر الحاج إمداد الله مختفياً إلى مكة المكرمة، وبقي الشيخ محمد قاسم مختفياً في الهند، حتى أعلن الإنجليز عن العفو العام عن الثوّار والمجرمين. فاستقرّ مقام الشيخ في وطنه لأيّام، ثمّ عمل مصححاً في المطبعة المجتبيّة بـ ((ميروت)).⁽⁸⁾

ولما رأى أنّ القساوسة انتشروا في مدينة دهلي يلقون خطباً عن ديانتهم أمام الناس ويضلّونهم؛ أمر الإمام النانوتوي - تلاميذه بأن يذهبوا إلى دهلي ويلقوا خطباً كذلك، ويساعدوا من يجاور القساوسة من علماء المسلمين. تواعد القساوسة وعلماء المسلمين على المناظرة و ضربوا الموعد، فذهب الإمام النانوتوي - بنفسه وناظر القسّ "تاراجندا" فأبكمه وأخرسه.⁽⁹⁾ وتوفّي الإمام سنة 1297هـ الموافق 1880م. فرحمهم الله رحمة واسعة.⁽¹⁰⁾

وكذا لما أخذ يوجّه أعداء الإسلام، اعتراضات إلى الإسلام في ذلك الزمان، دافعهم عن الإسلام حيث ردّ عن جميع إيرادات توجّهت إلى الإسلام من قبيلهم، وأثبت عقائد الإسلام وأحكامه بطريقٍ جديدٍ

An Islamic Think-tank

⁽⁶⁾. أيضاً، ص 32

⁽⁷⁾. أيضاً، ص 29

⁽⁸⁾. محمد ساجد القاسمي، تعريب ميله خدا شناسي [مخاورات في الدين]، (أكاديمية شيخ الهند، الجامعة الإسلامية دار العلوم/ ديوبند، سنة الطبع 2011م/1432هـ)، ص 17

⁽⁹⁾. أيضاً، ص 21

⁽¹⁰⁾. أعظم الندوي، الإمام محمد قاسم النانوتوي، (المعهد العالي الإسلامي حيدر آباد، الهند، السنة: 2010م/1431هـ)، ص 7-11

اخترع هو نفسه، وقد ابتكر أسلوباً فلسفياً جديداً لتفسير الإسلام والردّ على معترضيه، والتفصيل عليه فيما يأتي الآن إن شاء الله 1.

والآن نتقدم إلى توضيح جزء آخر لموضوعنا، وهو علم الكلام.

علم الكلام: تعريفه، نشأته وتطوره حتى عصرنا الحاضر

لعلم الكلام تعاريف عديدة، بينها العلماء في كتبهم. أكتفي هنا بتعريف يفي بغرضنا. فقال الأرنؤقي: ((هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها.))⁽¹¹⁾ من الملاحظة أنّ الدين عبارة عن مجموعة العقائد والأعمال، فالعقائد أصل الدين والأعمال فرعها، ولا يقبل أيُّ عملٍ بغير الإيمان.

ثمّ ليعلم إن العلم المتعلق بالأعمال يسمّى علم الشرائع والأحكام، والعلم المتعلق بالعقائد يسمّى علم التوحيد والصفات.

وإنّ هذين العلمين لم يدوّنا في العهد النبوي؛ لأن الصحابة لبركة صحبة النبي X والتابعين لقراءة ذلك العهد المبارك، كانوا صافي العقائد، إضافةً إلى ذلك أنّ الوقائع والاختلافات كانت قليلةً، وفي صورة الخلاف كان يمكن الرجوع إلى الثقات لحلّ المسألة والاختلاف، فلهذه الوجوه كانوا مستغنين عن تدوين هذين العلمين وترتيبهما أبواباً وفصولاً.⁽¹²⁾

ثمّ لم يحدث الخلاف والنزاع في العقائد فيما بين المسلمين، مادام الإسلام محدوداً في حدود العرب؛ لأنّ مزاج العرب مزاج العمل، لا مزاج التخيل والتوهّم، ولأجل هذا كانوا يتعرضون للأعمال من الابتداء، فاستعدّت مجموعة للفقهاء، ولم يكونوا بصدد بحث العقائد، وتمحيصها، بل كانوا يكتفون بالعقائد الإجمالية فقط. لكن لما انتشر الإسلام وتجاوز حدود العرب، وأسلم الإيرانيون، واليونانيون، والقبطيون، حدث الخلاف والنزاع بينهم في العقائد لوجوه عديدة، منها: أنّ مزاج العجم، مزاج التمحيص في كلّ شيء، فتمخّصوا في باب العقائد حسب دأبهم هذا، فنشأ الخلاف.

An Islamic Think-tank

(10). أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنّوجي (المتوفى: 1307هـ)، أجد العلوم، ج 1 (دار

ابن الحزم، السنة: 2002م/1423هـ) ص 275

(11). العلامة سعد الدين مسعود الفتازاني، خلاصة ما في شرح العقائد النسفية، بيان الفوائد، (أمان بكديو، أفريقي منزل قديم، ديوبند)،

ومنها: إن القوم الجديد الذي دخل الإسلام، زالت شبهاتهم عن العقائد الإسلامية التي كانت ظاهرة البتة، لكن العقائد ذات الوجهين، يحتمل أن يكون كما كان جارياً في دينهم، ويحتمل خلافه، مما ساقهم إلى الاختلافات.⁽¹³⁾

فلأجل هذه الأسباب، لغيرها من الأسباب الأخرى أخذت تحدث الفتن في عقائد المسلمين ونظرياتهم الدينية.

فأول خلافٍ حدث في الملة في الفاسق الملي هل هو كافر ، أو مؤمن؛ فقالت الخوارج أنه كافر ، وقالت الجماعة : إنه مؤمن ، وقالت طائفة المعتزلة: هو ليس بمؤمن ولا كافر، بل يثبتون منزلة بين منزلتين ، وخلدوه في النار ، واعتزلوا حلقة الحسن البصري وأصحابه بالاختلاف في هذه المسألة ، لذا سُموا معتزلة ، وأما أهل السنة فلم يخرجوه من الإسلام ولم يحكموا عليه بخلود في النار ، وإنما هو فاسق بكبيرته مؤمن بإيمانه عندهم ، وهو تحت مشية الله 1.⁽¹⁴⁾

هؤلاء الفرق الإسلامية، كانت توجد في ابتداء الإسلام، حتى شاعت فرقة المعتزلة وغيرها من الفرق الإسلامية، لكن اشتهر منها مذهب المعتزليين. وكان معظم الخلافات آنذاك مع الفرق الإسلامية خصوصاً المعتزلة؛ لأنهم أول فرقة أسسوا قواعد الخلاف لما ورد به ظاهر السنة وجرى عليه جماعة الصحابة -رضوان الله عليه أجمعين- في باب العقائد. فهناك جماعة، تمسكوا بظاهر السنة وما جرى عليه الصحابة، وكافحوا الفرق الإسلامية الضالة بتهديب المسائل بالأدلة، ويعرف مناهج هؤلاء العلماء علم الكلام.⁽¹⁵⁾

الكلام في قرون مختلفة حتى عصرنا الحاضر

القرن الأول:

ما مرّ بيانه آنفاً، كان تصوير علم الكلام القديم في القرن الأول. فكان منتهى كلام المتقدمين: شبهات الفرق الإسلامية، لا سيما المعتزلة، وردود أهل الحق عليهم بالدلائل النقلية فقط.

القرن الثاني:

An Islamic Think-tank

(13). الشيخ شبلي النعماني، علم الكلام، دار المصنفين أكاديمية شبلي، أعظم كرة، سنة الطبع 1993م، ص 8-1 بالتلخيص.

(14). محمد السفاريني الحنبلي، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، (المكتب الإسلامي - دار الخاني، 1411هـ / 1991م)، ص 364.

. ويقرأ هذا الكتاب في النت انقر على الرابط التالي: (وهذا حسب تاريخ 2012-12-15)

http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?flag=1&bk_no=107&ID=149

(15). الفتازاني، شرح العقائد، ص 24

من يجدر بالذكر في هذا القرن هو غيلان الدمشقي، الذي نشر مذهب الاعتزال في زمن عمر بن عبد العزيز—، وقُتل أخيراً لعقائده الضالّة. فلما توفّي عمر وتولى الوليد، اختار هو هذا المذهب، مما تسبب إلى انتشار هذا المسلك.⁽¹⁶⁾

وهذا انتشر أكثر مما قبله حين نقلت الفلسفة عن اليونانية إلى العربية في هذا القرن اذ جلس المهدي في مسند الخلافة. فخاض فيها الإسلاميون، لا سيّما المعتزليّون، واختاروا في استدلالاتهم طريق الفلاسفة، فتأثّر الناس وعلموا أن المعتزليّين دقيقوا النظر. فمازال علم الكلام في تنهيز في هذا القرن في عهد المهدي، والمأمون، والواثق. فانتشروا هذا العلم كما هو حقه، حتى شدت كيافته، وشاعت كُتبه في أنحاء العالم كله.

القرن الثالث:

قد شاع مذهبهم بين الناس في هذا القرن، فجعل يُهْتَكُ ظاهر الشريعة وأئمة السلف بسبب أقوال ومسلوك هذه الطائفة. ففي هذا الوقت بنفسه يحتاج الإسلام والمسلمون إلى من يحكّم ظاهر الشريعة بالأدلة العقلية ويردّ طريق الفلاسفة بالعقل ويحفظ عظمة الدين وأئمّته.

فانتخب لهذه الخدمة الإمام أبو الحسن الأشعري والإمام الماتريدي I، ويعرف مذهبهما بعدُ مذهب الأشاعرة، والماتريدية. فكافحا الفلسفة على ضوء وحى إلهيٍّ ووضعوا العقائد والمسائل أمام الدنيا بثوب عقليٍّ، ويعرف علم الكلام والعقائد هذا كلام المتأخرين.⁽¹⁷⁾

القرن الرابع:

من أهم ما يذكر في هذا الباب، هو إثبات ما في القرآن بالدلائل العقلية.

القرن الخامس:

من هذا القرن يبدأ زوال علم الكلام. لكن العلماء البارعين قد حفظوا نهضته. فممن نصر على علم الكلام في هذا القرن: الإمام محمد الغزالي الشافعي—، الذي غيّر قالب علم الكلام في ثوبٍ جديدٍ. ومن ميزاته: أن الفقهاء والمحدثين قد تنفّروا عن الفلسفة حتى الآن، فالإمام الغزالي— فرض تعليم هذا العلم، ووضّح ضروريّاته، حتى اندرج كثير من المحدثين في علماء الكلام.

واقفتي بأثره بعده تلميذه الرشيد العلامة عبد الكريم المشهور بـ "شهرستان".

القرن السادس:

(16). النعماني، علم الكلام، ص8-18 (مختصراً، تلخيصاً)

(17). التفتازاني، شرح العقائد، ص24

ثم جاء بعد الشهرستاني، الإمام الرازي -، ومآثره في هذا المجال: الرد على الفلاسفة، وتخليط المسائل الفلسفية بعلم الكلام، وتفسيره - القرآن بحيث تندفع اعتراضات أثرت خلاف الإسلام في ضوء العقل، وما إلى ذلك من المآثر العلميّة. قد كثرت أسباب إنحطاط المسلمين في هذا الزمان، فلا يوقع أن يظهر رجل مثل الرازي، على أن هناك رجال خلقوا، لم ينبغي لنا أن ننسى تذكرهم تحت هذا الباب من التاريخ. فكان مشتهراً منهم: العلامة سيف الدين الآمدي (551هـ-631هـ)، وابن رشد (514هـ-595هـ)، ومن مآثر ابن رشد في هذا المجال: أنّه كان يعتقد أن الشريعة والفلسفة عمودان لعمارة، فلا يجب أن يقال أمر الشرع ضعيف أمام العقل، ولا يجب أيضاً أن يحرم تعليم المنطق والفلاسفة، فاحتاج إلى التطبيق بينهما، ففعل...
القرن السابع:

أنجب هذا القرن شخصيةً عبقريةً، وهي قد اشتهرت بعد بـ"ابن تيمية - (661هـ-728هـ)، الذي ساهم في هذا المجال، فله أكثر من عشرة تصانيف في علم الكلام. كان الناس يزعمون حتى الآن أن عقائد الأشاعرة هي عقائد أسلاف الأمة، فردّ الشيخ على هذا الأمر، وأثبت أنّ بعض عقائدهم غير عقائد الأسلاف. فالحاصل أنه نقّح العقائد الإسلاميّة، حتى كان يريد أن يضعها على صورة القرون الأولى، لكن حالت المنية دون مراده. (18)

فهذه مختصرة في حالات علم الكلام القديم. ثمّ لنبيّن الآن شيئاً عن علم الكلام الحديث.

علم الكلام الحديث كما يراه المعاصرون

في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، حدث أول لقاء مباشر بين المسلمين في الشرق والأوروبيين، لما غزا نابليون مصر سنة 1798م، وجلب معه المطبعة، وبعض مقتنيات الحضارة الأوروبية الحديثة، فضلاً عن مجموعة من الخبراء والأكاديميين، ثمّ تلا ذلك بعث محمد علي باشا لجماعة من الطلاب المصريين إلى فرنسا في سنة 1826م، وكان قائد هذه الجماعة هو الشيخ رفاعة الطهطاوي. (19)

(18). النعماني، علم الكلام، ص98-105

(19). إن المصحّح قد وقع التسامح عنه في تصحيح "الطهطاوي"، فإنه صحّحه بـ"طنطاوي، والصحيح هو المذكور في المتن. وفي "ويكيبيديا الموسوعة الحرة الإلكترونية: أنّ "رفاعة رافع الطهطاوي" من قادة النهضة العلمية في مصر في عهد محمد علي باشا. وُلد رفاعة رافع الطهطاوي في 15 أكتوبر 1801 م، بمدينة طهطا إحدى مدن محافظة سوهاج بصعيد مصر، يتصل نسبه بالحسين السبط، وتوفى رفاعة الطهطاوي سنة 1290 هـ/1873م.

[http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%A%D8%B%D8%87%D7%B%D8%84%D7%A%D9%A%D8%B%D8%87%D7%A%D8%81%D9%B%8http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%A%D8%B%D8%87%D7%B%D8%84%D7%A%D9%A%D8%B%D8%87%D7%A%D8%81%D9%B%8](http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%A%D8%B%D8%87%D7%B%D8%84%D7%A%D9%A%D8%B%D8%87%D7%A%D8%81%D9%B%8http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%A%D8%B%D8%87%D7%B%D8%84%D7%A%D9%A%D8%B%D8%87%D7%A%D8%81%D9%B%8http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%A%D8%B%D8%87%D7%B%D8%84%D7%A%D9%A%D8%B%D8%87%D7%A%D8%81%D9%B%8)

فبعد عودته إلى مصر سنة 1831 بادر الشيخ لترجمة الكثير من الكتب الفرنسية. وقد كان لترجمات الطهطاوي ومؤلفاته، ولجهود آخرين تالية لجهوده، أثرٌ حاسمٌ في تدشين عهد جديد للفكر في مصر وما حوالبها من البلاد العربية، وهو العهد الذي تعرّف فيه المسلمون على شيء من معارف أوروبا وعلومها الجديدة.

ومثلما حدث في مصر، فقد سبق ذلك لقاء المسلمين الأتراك بالفكر الأوربي، وقارنه في النصف الأول من القرن التاسع عشر تعرّف المسلمين في شبه القارة الهندية على أوروبا وبعض معارفها، لقد اتسم تعرّف النخبة في العالم الإسلامي على أوروبا آنذاك بالانبهار والذهول، فمثلاً كان السير سيد أحمد خان يدعو المسلمين في الهند لاستيعاب مكاسب الحضارة الغربية، وبغية تحقيق ذلك أصدر مجلة "تهذيب الأخلاق" وهي مجلة تهتم بالتبشير بأفكاره، كما أنشأ مجمعاً علمياً للترجمة والتأليف والنشر، ومؤسسة تعليمية مهمة سنة 1875م، هي "جامعة عليكره الإسلامية"، كذلك ألف عدّة كتب، من أشهرها تفسيره للقرآن، الذي نحا فيه منحى تأويلياً، واهتم فيه بالتلفيق بين مداليل القرآن والعلوم الحديثة، فقدم في هدي هذا المنهج فهماً بديلاً لبعض العقائد، واقترح في كتابه "تبيان الكلام" نظرية جديدة اصطلح عليها بإنسانية الأديان.

لقد أشاعت آراء أحمد خان، ونظراته التأويلية للمفاهيم العقائدية، ودعوته للمذهب الطبيعي، عاصفة من الجدل والمناظرات، أيقظت التفكير الكلامي الساكن، وأقحمت العقل الكلامي في فضاء قلق مضطرب يموج باشكالات واستفهامات مختلفة، لم يألفها هذا العقل في متون الكلام الكلاسيكية، فانبرى للردّ على آرائه السيد أكبر حسين الإله آبادي، والسيد جمال الدين الأفغاني، وغيرهما.

إن آراء أحمد خان وآراء مفكرين آخرين ظهوروا في تركيا وإيران ومصر والمشرق العربي، عملت على تأجيج قلق عقائدي، مهّد السبيل لبعث روح الكلام وإحياء هذا العلم، فدبّت الحياة من جديد في التفكير الكلامي، وبدأ وعي بعض دارسي علم الكلام يتحرّر من الحواشي والشروح، الذي لبث محتجباً في مداراتها عن العالم مدّة طويلة.

جرباً على هذه السلسلة عمِلَ في هذا العصر كثيرٌ من الدارسين لا سيما الإيرانيون، ومتكلموا الشيعة، فشاع غير واحد من المقالات على تشكيل علم الكلام الجديد، وقررت المشروعات لبغية تحقيق ذلك. نورد الآن ما هو مفهوم علم الكلام الحديث كما يراه معاصرو العرب.

مفهوم علم الكلام الجديد

توجد نظريتان في تفسير علم الكلام الجديد. فقد ذهب البعض إلى أنّ تجديد علم الكلام لا يعني سوى دمج المسائل الجديدة واستيعابها في إطار المنظومة الموروثة لعلم الكلام، فمتى ما انضمت مسائل أخرى لعلم الكلام، تجدد هذا العلم.⁽²⁰⁾

وذهب غيرهم إلى أن مفهوم تجديد علم الكلام لا يقتصر على ضمّ مسائل جديدة فحسب، وإنما يتسع ليشمل التجديد في: المسائل، والهدف، والمناهج، والموضوع، واللغة، والمباني، والهندسة المعرفية.⁽²¹⁾

فصورة علم الكلام الجديد في نظر هؤلاء المعاصرين - كما أرى بعون الله 1- بعد ترتيب التفاصيل لديهم: هو ما يبحث فيه عن مسائل جديدة، تولدت من شبهات مستحدثة، ويتجاوز فيه عن الغايات المعروفة لهذا العلم، التي تتلخّص في الدفاع عن المعتقدات، إلى تحليل حقيقة الإيمان ومجمل التجربة الدينية. لا ينحصر على منهج في البحث الكلامي، بل يفتح على مناهج متعدّدة فيه، تشمل المناهج الهرميوطيقية "علم تفسير النصوص"، والسيمايائية "علم الدلالة"، والتجريبية، والبرهانية، مضافاً إلى ظواهر النصوص، والحقائق التاريخية. ويتحول في الموضوع المشهور من الاهتمام بقضايا وجود الباري وصفاته، والنبوة العامة والخاصة، والمعاد، إلى نطاق واسع يستوعب كافة القضايا الموجودة في النصوص المقدسة، سواء منها الناظرة إلى الواقع أو الناظرة إلى الأخلاق والقيم. مع التحقّق بالانتقال من لغة المتكلمين القديمة، ومعمايتها وألغازها، إلى لغة حديثة تعبر بيسر وسهولة عن الدليل، ويفهمها المخاطب من دون عناء، لأنها لغة معاملات وحياته اليومية.

أول من دعا إلى تجديد علم الكلام

على حسب المعلومات المذكورة إنّ علم الكلام الجديد، هو مشروع تظافت في احتضانه وتطويره مبادرات وجهود معرفية وعملية، أسهم فيها رجال كثيرون من أعلام المسلمين في العصر الحديث، لا يُخصّص فيه واحداً، دون آخرين.

فتعرّض عبدالجبار الرفاعي لسؤال «متى نشأ هذا المصطلح، ومن ساهم فيه؟» في كتابه "مدخل تاريخي إلى علم الكلام الجديد":

أما نشأة مصطلح علم الكلام الجديد، فيبدو أن هذا المصطلح ظهر للمرّة الأولى كعنوان لكتاب المفكر الهندي شبلي النعماني المتوفى سنة 1332هـ، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم بأن شبلي النعماني هو أول

(20). عبد الجبار الرفاعي، مدخل تاريخي الى علم الكلام الجديد، علم ضرورات النهضة ودواعي التجديد، الناشر: مجلّة الحياة الطيّبة، سنة

الطبع: 1424هـ/2004م. وتوجد هذه المقالة في الرابط التالي: <http://almadapaper.net/sub/05-393/p13.htm>

وهذا حسب زيارتي ذلك الموقع في تاريخ (10-12-2013).

(21). أيضاً. الرفاعي، مدخل تاريخي الى علم الكلام الجديد.

من نحت هذا المصطلح، الذي أضحي عنواناً للاتجاه الحديث في إعادة بناء علم أصول الدين، لكنه كان من أوائل الداعين إلى تجديد الكلام، بغية الردّ على الشبهات الحديثة، والدفاع عن الشريعة، فقد ذكر شبلي النعماني في مطلع كتابه هذا⁽²²⁾ "إن علم الكلام القديم يُعنى ببحث العقائد الإسلامية، لأنّ شبهات الخصوم كانت تتركز على العقائد فقط، بينما يجري التأكيد هذا اليوم على الأبعاد الأخلاقية والتاريخية والاجتماعية في الدين، وتتمحور الشبهات حول المسائل الأخلاقية والقانونية من الدين، وليس حول العقائد، فإن الباحثين الأوربيين يعتبرون الدليل الأقوى على بطلان الدين هي مسائل تعدّد الزوجات، والطلاق، والأسرى، والجهاد. وبناءً على ذلك سيُدوّر البحث في علم الكلام الجديد حول مسائل من هذا القبيل، حيث تعتبر هذه المسائل من اختصاص علم الكلام الجديد."⁽²³⁾

ثمّ صدر في طهران عام 1956م كتاب بعنوان "جهار مقالة: فلسفه يا كلام جديد" أي أربع مقالات: الفلسفة أو الكلام الجديد" تأليف جواد تارا، غير أن مباحث هذا الكتاب لا علاقة لها بعلم الكلام الجديد، وإنما يحتوي الكتاب على أربع مقالات، البحث الأول في مفهوم الوجود، الثاني في وحدة الوجود وعلاقة الوجود بالماهية، والثالث: يدور الحق والحكم، وفي الأخيرة ذكر الأدلة على عودة الأرواح.

أمّا لدى الباحثين العرب، فقد ذكر مصطلح "الكلام الجديد" الدكتور فهمي جدعان سنة 1976م ، في كتابه "أسس التقدّم عند مفكّري الإسلام في العالم العربي الحديث.

وفي إيران ظهر مصطلح "علم الكلام الجديد" مع ترجمة كتاب شبلي النعماني المذكور ونشره سنة 1950م ، لكن تبلور اتجاه جديد في التفكير الكلامي تجلّى بوضوح في آثار العلامة محمد حسين الطباطبائي، وتلميذه الشهيد الشيخ مرتضى المطهّري . فقد سعى الشيخ مرتضى سعيّاً حثيثاً لإرساء أسس منهجية لتجديد علم الكلام، وكتب تصوّرات أولية بشأن تلك الأسس ، كما اهتم بترسيم مفهوم علم الكلام الجديد.⁽²⁴⁾

An Islamic Think-tank

(22). إسم الكتاب الذي أشير إليه في المتن هو "علم الكلام".

(23). أيضاً. الرفاعي، مدخل تاريخي الى علم الكلام الجديد.

(24). أيضاً.

وفي ضوء المعطيات المذكورة لا ينبغي أن تُمنح "براءة" تحديث علم الكلام لرجلٍ واحدٍ؛ لأنَّ رِوَادَ الإصلاح أسهموا جميعاً في إعادة بناء هذا العلم، فمنهم مَنْ عمل على تحديث المسائل، وآخر عمل على تحديث المباني، وثالث عمل على تحديث اللغة، ورابع أسهم في كل منها بنصيب.⁽²⁵⁾

الملاحظة: لعل هؤلاء العرب إن يطالعوا كتب الإمام، ويفهموا حقَّ الفهم، لجعلوا الإمام النانوتوي مُوجِدَ علم الكلام الجديد لا محالة. لأني أرى في أكثر مقالات هؤلاء المُحدثين أنهم يتذكرون الشيخ شبلي النعماني كأول مساهم في هذا المجال بدليل أنه دعا إلى علم الكلام الجديد، وصنّف بغية تحقيق هذا الأمل كتابين: الكلام، وعلم الكلام. والحال أنه أيضاً لم يأتي بشيء جديد في هذا المجال. وإمامنا النانوتوي — أبداع في هذا المجال طريقتاً أنيقاً. كما سيأتي بعد من أقوال العلماء فيه. ولما اختلفوا فيما بينهم في تفسير علم الكلام الجديد. بل وجدوا في الإمام النانوتوي وخدماتهم الكلامية الجديدة، الموادَّ التي يبنى عليها الكلام الجديد؛ لأنَّ غرض كلِّ من الفريقين بالتجديد في علم الكلام، أن تحكّم أصول الشرع وفروعه، بحيث لا يبقى تعارضٌ بينها وبين الفلسفة الجديدة. وعلم الكلام القديم لا يفي بهذا الغرض المنشود؛ لأنَّ كثيراً من أصول الكلام القديم، قد خُطّأت بالمشاهدات، بخلاف منهج الكلام الذي اختاره الإمام النانوتوي —، الذي يبتني على الحسيّات، والمشاهدات الإنسانية، والتجارب العقلية، واليقينيّات التي هي حقائق أزليّة، وأبدية لهذه الدنيا، فمهما لم تكن الحرارة من النار، والضياء من الشمس، والبرودة من الماء زائلة، لا يطرأ الخرق على الدلائل التي أوجدتها الحكمة القاسمية. لهذا قال الشيخ العثماني قوله الذي ذكرناه في أول المقالة. ثمّ يقول:

هذا هو الشيخ الفاضل، الذي دوّن طريقتاً أنيقاً في علم الكلام. وهو منحوتة في الحجر مازال إلى يوم القيامة، ولا تقضي مفاخرتنا عليه أبداً.⁽²⁶⁾

قبل أن نبدأ الجزء الهام لموضوع مقالتنا، ننبّه على ما قال علماءنا الديوبندية عن علم الكلام الجديد، لأنَّ الأشياء تعرف بأضدادها. ثمّ نحاول أن نحدّد المفهوم الأساسي الصحيح لعلم الكلام الجديد.

علم الكلام الحديث وعلماءنا الديوبندية

وقد ثبت عن علمائنا خلاف ما سبق من احتياج إلى التجديد في هذا العلم. فممنّ خالف التجديد في علم الكلام، العلامة شَبَّير أحمد العثماني —، فزعم⁽²⁷⁾ أنّ علم الكلام لا يحتاج إلى تجديدٍ ما،

(25). أيضاً.

(26). العثماني، العقل والنقل، ص40

بل إن متكلمي الإسلام قد حققوا مسائل الكلام بتحقيقات عالية، ودوّنوا أصولها بالتعمّق البالغ بحيث يندفع كلّ شبهة واعتراض نشأ في الغابر، وما ينشأ فيما يأتي من الزمان على هذه الأصول.⁽²⁸⁾

وردّ على ما يقول المُحدثون بأنه يجري التأكيد هذا اليوم على الأبعاد الأخلاقية والتاريخية والاجتماعية في الدين، وتمحور الشبهات حول المسائل الأخلاقية والقانونية من الدين، لا ينحصر في قضايا العقائد فقط؛ لأنه هو يليق بشأن علم الكلام بأن يبحث فيه عن العقائد فقط؛ لأن القضايا الأخرى التي أحالوا عليها المُحدثون، يبحث عنها في علوم أخرى مستقلةً، مثلاً علم التصوف، وعلم الأخلاق، وعلم أسرار الدين يفي بهذه الحاجة. ففصل الكلام فيها عن أسرار الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، والطلاق، والجهاد وغيرها من أحكام الإسلام.⁽²⁹⁾

وشدّد الشيخ أبو الكلام آزاد في هذه القضية، فيرى مثل ما قال الشيخ شبير أحمد العثماني، حيث أنكر التجديد في علم الكلام إنكاراً. ثمّ ردّ على من قال بالتجديد رداً بليغاً، وإنّ الشبهات والإنكار من الإنسان، بيتني على ضلالة نظره، وفكره. وضلالة الفكر لا يظهر عن الخارج، بل إنّها عارضة طبعية، كعوارض أخرى. ومن المعلوم أن الطبيعة في اكتساب العوارض ما زالت في حالة مستقرة، وإنما تزيد وتنقص باعتبار الكمية. مثاله كمثل الأمراض، فإنها على حالتها مستقرة، وإنها تزيد في كمّيته. وذلك لأنّ الحمى إذا تصيب أحداً، يكون على حقيقته الأصلية سواءً كان في زمن بقرط، أو عصرنا هذا. فإن لم يكن هكذا، تُعطلّ تحقيقات الأطباء السابقين، ويحتاج كل سنة إلى طبّ جديد.⁽³⁰⁾

وقال أيضاً: إنّ عدم العلم بشيء لا يستلزم عدم وجود ذلك الشيء؛ فلا يقال: إن الدواء الفلاني ما كان موجوداً قبل زمن الرازي والبيطار بدليل أن خواصه ما كان معلومةً، هذه حالة الدواء للأمراض الظاهرة، وحالة الأمراض الباطنية من الشكوك والشبهات وعلاجها تكون بعينها أيضاً.⁽³¹⁾

(27). أي قال. بهذا المعنى أستعملت هذه الصيغة في "الكتاب" للإمام سيوييه. (الكاتب)

(28). أيضاً، ص 79

(29). أيضاً، ص 79

(30). الشيخ ابو الكلام آزاد، عموم جديده كا فريب أي خداعة العلوم الجديدة، ترجمان السنة، 02-01-201. وتقرأ هذه المقالة في

الرابط التالي: <http://tarjumanussunnah.blogspot.in>

(31). أيضاً. الشيخ ابو الكلام آزاد، عموم جديده كا فريب أي خداعة العلوم الجديدة.

أرى أنّ كلام الشيخ الداعي الأجلّ محمد أشرف على التهانوي - في هذا المقام المتنازع فيه كالقول الفصل ، حيث قال في مقدمة ((الانتباهات المفيدة)):

رفع الصوت من قبل المعاصرين أنه مسّت الحاجة في هذا العصر إلى تجديد علم الكلام. هذا القول غلط ، وخطأ ؛ لأنّ أصول علم الكلام وافية، وكافية، أدرك هذه الحقيقة أهل العلم حين يستخدمونها ، وأيقنوا به بعد التجارب. نعم! يطلق على هذا العلم "الجديد" بإعتبار الفروع. وجمديته هذه باعتبار الشكوك، والشبهات، لا باعتبار الأصول والقواعد. كما أنّ الشبهات القديمة التي اندرست في الماضي، ثمّ أنشأت في هذا العصر، فتقال من هذه الحيثية إنه جديد، فلا بأس في هذه الصورة. ثمّ إذا تجددت بياناته نظراً إلى مذاق أهل عصره، فلا حرج أن يقال: علم الكلام الجديد.⁽³²⁾

وعبر مراد الشيخ أحد⁽³³⁾ من المعاصرين بهذه الألفاظ : علينا أن ننظر في مقررات علم الكلام، ولا يعني هذا التجديد والتبديل في العقائد. بل التجديد في أساليب تشريح العقائد، والترجيحات، هو من أهم الحاجة في هذا العصر.⁽³⁴⁾

فجملة الكلام أنّ علماءنا أيضا يقولون بالتجديد في علم الكلام، لكن مع كونهم في دائرة محدودة، لا كما يراه المعاصرون العرب؛ فإنهم قائلون بهذا مطلقاً، وهذا ربما يسوقهم إلى الإلحاد، واللاذينية. وذلك لأنّ نظرية أكثرهم أن تطابق أصول الشرع، بعلوم الغرب الجديد، وعند علماءنا لا يحتاج الشرع أن يطابق الغرب؛ لأنه مازال في تغير. والشرع أمرٌ من الله، ليس فيه تغيير، ولا تبديل. ثمّ إنّ الأصول التي يتبنى عليها الكلام الجديد لديهم، يمكن أن يخرق فيما يأتي من الزمان على تحقيقات جديدة. لذا لا بدّ من أسلوب، بحيث لا يعترض على قضية من قضايا الإسلام بناء على أصول، لا يتغير مع تغير الزمان، ولا يخرق بأيّ تحقيقات، ما تزال تستحدث وقتاً فوقتاً. فلا يستطيع أن يكون كلامهم "علم الكلام الجديد؛ لأن هذه الميزات لا توجد في كلامهم. بل توجد في علم الكلام، ربّه إمامنا النانوتوي - ، كما سيثبت تفصيلاً بعد قليل إن شاء الله 1.

(32). الشيخ حكيم الأمة أشرف علمالتهانوي، الإنتهات المفيدة عن إشتباهات جديدة، (مكتبة البشري، الكراچي، باكستان، سنة الطبع

2011، 1432: ص 5،6

(33). الشيخ محمد زاهد الراشدي ابن العالم البارع المفستر الخليل محمد سرفراز خان صفدر - .

34. الشيخ محمد زاهد الراشدي، (دور حاضر كے علمی سوالات اور ہمارے ذمہ داری: أسئلة العصر الحاضر، ومسئولياتنا) ،

مجلة الفرقان:، لكهنو، ستمبر 2013، ص 31

فيبقى السؤال حتى الآن ما هو علم الكلام الجديد. فنحاول -إن شاء الله 0- فيما يلي أن يجاب عن السؤال الهام، كي يبدو لنا المفهوم الصحيح لعلم الكلام الجديد:

مفهوم علم الكلام الجديد الصحيح

فنعني أنّ مقدمة الجيش لعلم الكلام الجديد ظهرت في القرن الثاني عشر في عهد الإمام الشاه ولي الله المحدث الدهلوي -، لم يجعل المشكّكون، و المعترضون اعتراضاتهم فنّاً مستقلاً إلى حدّ الآن، بل يصرفون قوّتهم في تصويب تحقيق مفهوماتهم، وتغليط مفهوم الآخرين. فأهل الحق أيضاً يردّون عليهم بقدر شبهاتهم، واعتراضاتهم. وردود أهل الحق موجودة، منتشرة في كتب مختلفة تحت مسائل متعلقة بها.

فلما أخذ يظهر أوريون بأسلحتهم الملحدة، وجعلت تتغيّر أيام الهند، ويشيع سحاب العقلانية، والعجب في سمائها، وكاد أن يسيل العالم كلّه بسيل الإلحاد، والدهريّة. وصار أهل هذا الزمان بحيث لا يجب أن يقبل أيّ أمر من أمور الدين بالنقل فقط، بل جعلوا السفسطة العقلية فنّاً مستقلاً لإثارة الشبهة على الدين.⁽³⁵⁾ كما صوّر هذه الصورة الإمام الشاه الدهلوي في مقدمة "حجة الله البالغة":⁽³⁶⁾ وأنّ الشريعة المصطفوية أشرفت في هذا الزمان، على أن تبرز في قمص سائغة من البرهان. فبادر للمبارزة مع هولاء الإمام الشاه الدهلوي، فبارز معهم كما كان حقه.

واختار في المبارزة منهجاً، يصول به المبطلون. يقول الدهلوي - بنفسه في كتابه المذكور: «ولا سبيل إلى دفع هذه المفسدة إلّا تبين المصالح، وتؤسّس لها القواعد، كما فعل نحو من ذلك في مخاصمات اليهود والنصاري والدهريّة وأمثالهم.⁽³⁷⁾ فجعل الإمام النانوتوي - الأدلّة العقلية فنّاً مستقلاً في باب الدين، وصنّف في هذا الفن كتابه المشهور "حجة الله البالغة".

ثمّ يشرع دور علم الكلام الجديد من القرن الثالث عشر الهجري، حين قبض الأنجليز الهند، أتى معهم بالفلسفة الجديدة، واختراعاته العلمية في هذا البلاد، وكان هذا العصر عصر المكينات والآلات، عصر يحتاج الإنسان فيه إلى أشياء ماكنيية في كلّ حاجة من حوائجه الدنياويّة. وأتى العالم كلّه في إطار المكانكة.

فالخلاصة: لأجل أن الفلسفة الجديدة، والانكشافات العلميّة الحديثة التي بنائها على المحسوسات والمشاهدات وقع الكلام أن العالم كله في قبضة المحسوسات خروجا من المعقولات والنظرات العلميّة.

⁽³⁵⁾. الشيخ المقرئ طيّب -، حكمت قاسميه [تعارف عن الحكمة القاسمية]، شعبة النشر والإشاعة دار العلوم ديوبند، ص 18

⁽³⁶⁾. الإمام الشاه ولي الله الدهلوي، (مطبعة: دار ابن كثير، الطبعة الأولى: 2010م/1431هـ)، ص 40.

⁽³⁷⁾ الشيخ المقرئ طيّب -، حكمت قاسميه [تعارف عن الحكمة القاسمية]، ص 18

فاختلفت وجهات النظر طبعاً. وصار من يجب المعقولات، محبباً للمحسوسات. فالآن أخذوا يشنوا الإسلام بشبهات مبنية على المشاهدات الحسية، وأفكارهم الطبيعية بديل اعتراضات النظريات العقلية. فمست الحاجة الآن إلى أن تلبس المسائل الدينية بالقمص الملونة بلون الطبيعة، بديل أن تلبس بلبس نظرياتي. ويرد على الشبهات الطبيعية بالأصول المستنبطة من الاكتشافات الطبيعية.⁽³⁸⁾ وهذا هو الكلام الجديد.

فمحمل الكلام الجديد -على ما أفهمني الله 1-: أن يثبت العقائد الدينية بالأدلة المشحونة بالمحسوسات، والمشاهدات، دفع الشبهات عنها، التي تبني على الحقائق الحسية، والمشاهدات المحققة، والتجربات اليومية.

ما زال الدهر في انتظار من يحمل بهذا العبأ، ويؤدي حقه بأتم أمانة، وأكمل سليقة.

الإمام النانوتوي وعلم الكلام الحديث

فأظهر الله 1 إمامنا العلامة الشيخ محمد قاسم النانوتوي -قدس الله سره- في أوائل القرن الثالث عشر الهجري، على صورة طبيبٍ حاذقٍ للأمراض والجراثيم الملونة باللون الطبيعي. فأيقظ الإمام بتقاريره، وكتبته قلباً نائمةً لعبدة الفلسفة الجديدة، والمشاهدة المحققة، وهزهم بأصول أنفسهم، لا ينكرونها، ولا يتولون عنها.⁽³⁹⁾

من المعلوم أن مجال الإمام العملي الأساسي هو مجال علم الكلام، فإذا تعمقنا النظر في مسأله الكلامية، يظهر لنا أنه لا صنف كتباً كثيرة في مجال علم الكلام فقط، بل أبدع منهجاً أنيقاً فيه. فبين إمامنا، وبين علم الكلام الجديد مناسبة عميقة؛ لأن ماهيات علم الكلام الجديد، تري في منهجه بكلّ وافر.

فعلم منه المناسبة بين علم الكلام الجديد وكلام الإمام -، وقد أحسن الشيخ عتيق الرحمن - إذ وضح المناسبة بين الإمام النانوتوي - وعلم الكلام الجديد. فيقول:

مست الحاجة إلى ترتيب علم الكلام الجديد منذ زمن بعيد، فيمكن أن يعرض الإسلام إلى هذا العالم العلمي الجديد في ثوب قشيب. وأول من بادر إلى تكميل هذه الضرورة الشيخ شبلي النعماني،⁽⁴⁰⁾ فصنف كتابين مهمين فيه: الكلام، وعلم الكلام.

(38). أيضاً، ص 18

(39). أيضاً، ص 18

(40). كما ذكرت فيما بعد شيئاً منه، وهو في صفحة 18، ورقم الحاشية: 41.

لكن لا يخفى على أهل النظر من العلماء أنّ الشيخ النعماني - ما كان من رجال الفلسفة الجديدة، ولا يقدر الاستفادة من لغة الغرب بلا واسطة، لذا لا تجاوز محاولته في إثبات العقائد الدينيّة، بإزاء فلسفة جديدة، حدود الفلسفة القديمة. كما اعترف به الشيخ بنفسه في ابتداء كتابه "الكلام".⁽⁴¹⁾

لأنّ عمدة هذين الكتابين هي علم الكلام القديم بنفسه، ودلائلهما، وبراهنهما، التي ذكرت في كتب الغزالي، الرازي، الشيخ الأكبر، وابن رشد وغيرهم من حكماء الإسلام القدماء، وإنما الشيخ النعماني - لا يزيد على هذه الأشياء إلا أنه ربّتها بسليقة، وعرضها بلغة مهذّبة، وأسلوب علمي. وقد يحيل على أفكار فلاسفة الغرب، متى يحتاج إليه. فخدمة الشيخ النعماني وإن كان ذا وقعة وأهمية من وجهة النظر الأدبية، لكن لا ريب في أنه لا يقال لمثل هذا "علم الكلام الجديد؛ لأن الشيخ تشبّث باذيال الفلسفة القديمة، فإذا يطرأ عليها الزوال، فلا يقي كلامه أيضاً من الزوال. وأما الإمام النانوتوي - : اختار منهجاً للاستدلال، تبتني على المشاهدات الإنسانية والمحسوسات المسلمّة، والتجارب العقلية، التي هي حقائق هذه الدنيا الأزليّة، والأبدية. فمهما لن تفصل الحرارة من النار، والبرودة من الماء، والضيء من الشمس، لا يطرأ الشقاق على هذه الأدلّة القاسمية. فبناءً عليه يقال أنّ الإمام النانوتوي - قدّم إلى الدنيا علم الكلام في ثوبٍ قشيبٍ، القائم إلى قيام الساعة.

ثمّ الآن نقدم إلى مناهج، اختارها إمامنا - في أصول، ومسائل الكلام، وميزات كلامه الجديد.

مناهجه في المسائل الكلامية و ميزات كلام النانوتوي -

*** إن الحكمة القاسمية يلقي ضوءاً على حقائق الإسلام باللّميات العميقة، ويبيّن مبرهنة بالشواهد الحسيّة والنظائر الثابتة، بحيث تُرى المغيبات الإسلامية، ومقاصد الدين الأساسية، ومباني وأصول الدين، محسوسة ومشاهدة. فالمسائل الكلامية الإسلامية من مسألة المبدأ، والتوحيد، والرسالة وما إلى ذلك من المباحث العقائدية بيّنها الإمام -، وقرّر أصولها، وفروعاته بحيث ترى أنّها كلّها فطرة، وأمور طبيعية. وثبت بهذا المنهج الجديد أن الإسلام دين فطري أيضاً، كما أنه دين عقلي.

وكان لا يجب أن يلقى في قلوب الناس بقوة الدلائل النظرية فقط، بل يؤدّد أن تظهر بأن هذه العقائد والأحكام جدية بأن تسلّم، كما يجدر بتسليم وجود الشمس اللامعة. وهذه حقيقة لا يسلمه فظن، ذهبن على طريق الجبر، بل بطريق مقتضى طبيعته.⁽⁴²⁾

⁽⁴¹⁾ حيث قال الشيخ في كتابه علم الكلام ص 3،4: ((أني لست من أهل هذا الفن، بل أني ملم بفن التاريخ))، وأني طالت هذا العام غير مرّة، فلم أجد فيه شيءاً بديعاً، بخلاف كتب الإمام، ربما حيرت بدائع، حتى جعلت أحبه في الله، هذا كله نشأ بعد قراءة الرسالة التي تعرف الحكمة القاسمية للشيخ المقرئ محمد طيب/ رئيس الجامعة الإسلامية بديوبند سابقاً. ولا يكتب مثله بعد علنتعارف الحكمة القاسمية. فجزاها الله بما هما أهلها. (الكاتب)

*** إنَّ من العجب أن طريق بيانه استدلالى خالص، منطقي، يكون حجةً يسلمها المطيع والمخالف سواء بسواء. (43)

*** إنَّ الحقائق كلها نقلية، لكن بدون الإحالة على النقل، لكن يرى أنَّها معقولة، فلسفية، علمية، كأنه جعل العقل والطبع خادماً للدين. (44)

*** إنَّ مضامينه دقيقة، عالية، عميقة، لكن طريق بيانه ليس بأنه سهل فحسب، بل أنه سهل ممتنع. إن خطباته تكون مشتملة حاوية جميع شقوق المسألة، فلا تحلّ دلائله طرفاً واحداً فقط يتعلق بتلك المسألة، بل يحلّ بها جميع شقوق المسألة، ومسائل أخرى، مما أجبر الناس على أن يعترف بأن هذه جزئية من جزئيات الشرائع تسع كليات عقلية لا تعدّ مقدارها، وكذا كم من أصول تعمل على هذه الجزئية الواحدة فقط. حتى يرى أنه ليس بعقلي فقط، بل طبعي أيضاً.

*** المسائل التي قال عنها العلماء، بأنها من الشاذة، هذه المسائل أيضاً معقولة ناشئة من قياس جلي لدى الإمام النانوتوي -، مثلاً: إن القهقهة عند الفقهاء أمر تعبدى، وهو عنده أمر قياسي.

ويبين كلفةً بهذا الصدد: أن هذه جزئية داخلية تحت كلفة، ثبتت معقوليته. فكيف يكون جزئي منها خلاف ذلك القياس. فجملة القول: أن إرجاع الجزئيات الشرعية إلى أصولها، وتخريج الجزئيات عن أصولها أو تمهيد قاعدة بعد استقراء جزئياته المتعددة: علم مخصوص للإمام -، ومقام ممتاز لعلمه. (45)

*** وأعجب منه أن القياس والاستنباط تتعلقان بالأحكام، لا بالأخبار والوقائع. فيصح أن يقال إنَّ هذه الأحكام معقولة، فيما يصعب أن يقال أن هذه الوقائع معقولة أي إن العقل أيضاً يقتضيها كما وقعت هي، لكن عند الإمام النانوتوي - أن الوقائع الشرعية أيضاً لا تخرج من الأصول العقلية. ومواهبه المعطية تخدم في اللّميات العقلية للأخبار والوقائع الشرعية، كما هي تعمل في بيان الأحكام. مثلاً: إن وجود الكعبة ليس تكوينياً محضاً، بل إنه عقلي. فوجود بيت الله حيشماً وجد، وكون أول بيوت في الأرض ليس حقائق تاريخية فحسب. بل إنهما على مقتضى العقل أيضاً.

*** وأضف إلى ذلك: أن المدّة الفاصلة بين وجود الكعبة، وبيت المقدس، والمسافة بينهما كذلك ليس تاريخياً أو جغرافياً محضاً، بل أن كلّها واقعة حسب الأصول العقلية، وذلك لأنَّ هذه القضايا من

(42). الشيخ المقرئ طيب-رحمه الله-، حكمت قاسميه [الحكمة القاسمية]، ص 19

(43). أيضاً، ص 20

(44). أيضاً، ص 20

(45). أيضاً، ص 22

الدعاوي الشرعية، وحسب أصول حكمة الإمام - : لا توجد أية دعوة من الدعاوي الشرعية، تخالف القياس، والعقل. والتفصيل في كتابه "قبله نما".⁽⁴⁶⁾

*** إن استدلال القرآن بالمشاهدات من الأرض، والسماء، والقمر، والنجوم، والبحار، والجمادات، والنباتات وغيرها على الحقائق الغيبية: استدلال طبيعي، وفطري. فالإمام النانوتوي - حلّ عقد هذه المكونات بطريق طبيعي، فجعل هذه الاستدلالات أوفق بالطبيعة، من أن يجعلها عقلية، نظرية.

انطباق هذه الكلية: أنه وضح بكل وضحة أن الاستدلالات القرآنية تحتوي على الحقائق الطبيعية، فالأحكام الثابتة بها ليست بعقلية محضة، بل إنها علمية و فطرية أيضاً، مثلاً: إن القرآن استدلل على ثبوت القيامة بتغيّرات جزئيات العالم، فهذا نهج القرآن الشرعي، والإمام يفصله، ويقول: فإذا كانت هذه التغيّرات طبيعية، موافقة للعلم، والفلسفة الجديدة. فتغيّرات العالم الكلية - أي موت مجموعة العالم - أيضاً تكون طبيعية، موافقاً للعلم الجديد. وهذه التغيّرات هي القيامة لدى الإسلام. فأثبت القيامة بالدلائل العقلية كما هو موضوع الفلسفة، وبالدلائل الطبيعية، والمشاهدات كما هو منهج العلم الجديد والطبعيات.⁽⁴⁷⁾

فجملة القول أن الإمام يستخدم مبادئ الفلسفة، ومبادئ الطبعيات: لكي تُردّ شبهات واشكالات المتفلسفين بطريق الفلسفة، وشبهات الماديين العلمية بطريق حسي، ومشاهدتي، لا سبيل غيرها لإصلاح هؤلاء الضالين.⁽⁴⁸⁾

*** علاوة على ذلك: من ميزات كلام الإمام النانوتوي - : بأنه كان مزيناً بالبلاغة و الفصاحة السائدة في ذلك العصر. وكلام الإمام واقع في موقع عال، باعتبار الخطبة، والتقرير المحض لاشتمال بياناته على الأدب، والبلاغة.⁽⁴⁹⁾

*** بل إن منهج استدلاله في المسائل الكلامية، نفس منهج القرآن، ربما يشتمل تحريره على ترجمة ركوع فركوع من ركوعات القرآن، لكن لأجل اشتمالها على نهج عقلي، وأسلوب منطقي، كثير من اصطلاحات المنطق، والفلسفة، يصعب فهم هذه المضامين على من ليس له يد في هذه العلوم.⁽⁵⁰⁾

An Islamic Think-tank

⁽⁴⁶⁾. أيضاً، ص 22، 23

⁽⁴⁷⁾. أيضاً، ص 32، 24

⁽⁴⁸⁾. أيضاً، ص 25

⁽⁴⁹⁾. أيضاً، ص 25

⁽⁵⁰⁾ نور الحسن راشد الكاندهلوي، قاسم العلوم حضرت مولانا محمد قاسم نانوتوي احوال وأثار وبقايات ومتعلقات

[النانوتوي: أحواله، وآثاره، وبقاياته، ومتعلقاته]، (مكتبة النور، مولويان، سنة 2000)، ص 766، 767

الآن نقدم مسائله الكلامية، وجدتها في كتبه المختلفة، الموجودة عندي. كي تبدو لنا صورة كاملة لعلم الكلام، التي صنّفها الإمام، وأبدع فيه منهجاً أنيقاً، ويسهل التوظيف عليها للناشئين. فهارس المسائل الكلامية التي رتبها الإمام على وجه أنيق، الملتقطة من كتبهم المختلفة اختار فيه هذا ترتيب كتب علم الكلام، لا سيمماً شرح العقائد النسفية. وقسمت المسائل على قسمين: (١) المسائل الكلامية، (٢) أسرار الأحكام الشرعية.

عناوين المسائل	أسماء الكتاب	الملاحظة
المسائل الكلامية		
مسألة وجود الباري	تقرير دلبيذير، حجة الإسلام.	إن الكتاب الأول، وضع على المسائل الكلامية مستقلة.
توحيد الباري	تقرير دلبيذير، حجة الإسلام، محاورات في الدين	
إبطال التثليث	تقرير دلبيذير، حجة الإسلام، محاورات في الدين	
الرد على النصارى في قضية إثباتهم ابنية عيسى	تقرير دلبيذير، حجة الإسلام	
إثبات عبودية عيسى - عليه وعلى نبيّنا الصلاة والتسليم	حجة الإسلام	
نفي بشرية الباري	تقرير دلبيذير، محاورات في الدين	
صفات الباري لا عينه، ولا غيره،	تقرير دلبيذير، قبله نما	
بساطة الباري 1	جواب تركي به تركي، حجة الإسلام	
صفات الباري لا تحد، ولا تحصى	تقرير دلبيذير	
الربط بين صفات الله 1	جواب تركي به تركي	
إن الله تعالى منزّه من كل عيب،	حجة الإسلام، محاورات في الدين	

		جامع لجميع الكمالات
	جواب تركي به تركي، إنتصار الإسلام	الله قادر مطلقاً
	حجة الإسلام	إن الله حكيم
	تقرير دلبيذير	الله أزلي
	جواب تركي به تركي، محاورات في الدين	إبطال قدامة المادة
	حجو الإسلام	العالم بجميع أجزائه حادث
	تقرير دلبيذير	لا يتمكن في مكان
	جواب تركي به تركي	الله محيط لكل شيء
	تقرير دلبيذير	وهو منزه عن الجسم
	تقرير دلبيذير، حجة الإسلام	مسألة التقدير
جاء البحث على القدر في الكتاب، حين رُذ على شبهة عنه.	تقرير دلبيذير، محاورات في الدين	القدر خيره، شره من الله
	تقرير دلبيذير، حجة الإسلام	إن الله خالق أفعال العباد
	تقرير دلبيذير	وبيان المفسدات في تسوية العباد مع الله.
	تقرير دلبيذير	رؤية الباري ممكن
	تقرير دلبيذير	والرد على منكريها،
فصل البحث في الكتاب الثاني حقّ التفصيل.	تقرير دلبيذير، إنتصار الإسلام	إثبات الساعة

	إنتصار الإسلام.	مسألة الثواب، والعذاب
فصل كلّ التفصيل.	إنتصار الإسلام	الرد على عقيدة التناسخ
	حجة الإسلام، محاورات في الدين.	الحاجة إلى الرسالة
	حجة الإسلام	الإيمان بجميع الأنبياء واجب
	حجة الإسلام، محاورات في الدين	عصمة الأنبياء
	تقرير دلبيذير	مسألة المعراج
	جواب تركي به تركي، محاورات في الدين	الاعتراض على شفاعة النبي X ، والرد عليه
جاء البحث تفصيلا في الكتاب الثاني.	جواب تركي به تركي، حجة الإسلام، قبله نما، محاورات في الدين	أفضلية محمد X
	تحذير الناس، محاورات في الدين.	ختم النبوة
	فيوض قاسمية	مسألة علم الغيب
في الكتاب الثالث التفصيل.	حجة الإسلام، قبله نما "الكلام على معجزة شق القمر"، محاورات في الدين	الكلام على معجزات النبي، والموازنة مع معجزات الأنبياء
	جواب تركي به تركي، قبله نما	القرآن كلام الله
	حجة الإسلام، إنتصار الإسلام	مسألة النسخ: حقيقته، وأحكامه
	تقرير دلبيذير، إنتصار الإسلام، محاورات في الدين	وجود الجنة والجحيم

	تقرير دلبذير، محاورات في الدين	وإثبات الملائكة والشياطين.
	جمال قاسمي	الكلام على مسماع الموتى
الأقسام الثاني:		
	إنتصار الإسلام	الاعتراض على تعدد الأزواج، والرد عليه
	جواب تركي به تركي	الرد على شبهة تخالف المضامين في القرآن
	جواب تركي به تركي	الردّ على الاعتراض على الجهاد، وأموال الفئ
	جواب تركي به تركي	مسألة الاستبعاد
	جواب تركي به تركي	الردّ على أشبهه على مناسك الحج
	جواب تركي به تركي	الإعتراض على استعمال القسم في القرآن، والرد عليه

هذا على تبعية الكتب الموجوة التي موجودة عندي، وإني جمعت عناوين المسائل الكلامية فقط، لا جميع ما في هذه الكتب من مباحث قيمة للفلسفة، والحكمة التي أوردها الإمام - في كتبه لإثبات هذه العقائد. جاءت في الجدول أسماء عدّة كتب. أرى مناسباً أن أذكر شيئاً عن أهم الكتب منها، لأنها تشتمل على المسائل الكلامية.

(1) تقرير دلبذير (المحاضرة الآسرة للقلب):

هذا تصنيف مستقل للإمام -، وهذا مجموعة محاضراته في الإسلام، يدعو به العالم كله إلى الإسلام. يخاطب به أهل الأديان المختلفة، كما خوطب فيه الملحدون أيضاً. صنّف على منهج المتكلمين. بل يزيد عليهم بطريقة بديعة، لا توجد في كتب غيره. أراد أن يستوعب جميع المسائل الكلامية بنهجه الخاص، لكن لم تساعده الحياة.

(2) حجة الإسلام

كتاب بديع، صنّفه الإمام خلال ليلة، ونصف من اليوم. حاول أن تثبت فيه حقّانية الإسلام. يقول تلميذه الرشيد الشيخ محمود حسن الديوندي عن هذا الكتاب: سمعت شيخني يقول إن المضامين التي أردت أضعها في الكتاب ((تقرير دلبذير))، كتبها في هذا الكتاب، ولو مختصراً.⁽⁵¹⁾ وهذا أيضاً مشتمل على أصول منطقية، فلسفية.

(3) جواب تركي به تركي (الجواب المفحم) أو البراهين القاسميّة

صنّف للرد على إعتراضات "آرية سماج"، يشتمل هذا الكتاب على مسائل دقيقة لعلم الكلام، ففيه مسألة وجود الباري، صفات الباري: علمه، قدرته. وأثبت في آخر الكتاب أن القرآن كتاب إلهي من غير كتب أخرى، والحاجة إلى الأنبياء، وفضائلهم. ثمّ بحث فيه عن ختم النبوة. تناول كل ذلك بأسلوب علمي دقيق، وترتيب منطقي سليم، واستنتاج عقلي متين.

(4) انتصار الإسلام

جمعت فيه الردود على شبهات "آرية سماج". جاء هذا الكتاب بردود عنيفة وواضحة على شبهاتهم الوهمية. تشتمل على نكات لم تر العيون قطّ. توجد فيه أيضاً عدّة مباحث كلامية.

(5) قبله نما (الموجه إلى القبلة)

هذا الكتاب أيضاً صنّف رداً على اعتراض الهنادكة على استقبال الكعبة. فبيّنت فيه الفروق الجوهرية بين عبادة الأصنام واستقبال القبلة من ناحية عقلية. فيه أيضاً مسائل دقائق بديعة، لا توجد في كتب غيره. هذه الكتب بمثابة الأصول لإدراك مسأله الكلامية، لذا أتى بها، وإلا له مؤلفات أخرى في هذا المجال. كما يقول الندوي: وله مؤلفات ذات شأن في علم الكلام وفضل الإسلام⁽⁵²⁾

كيف يستفاد عن كتب الإمام - الكلامية

ظهرت لي أشياء عديدة لفهم كتبه -، حين شمّرت عن ساق الجد، لمطالعة كتبه. وهي فيما يلي:

* أولاً أن يراجع إلى أمناء الحكمة القاسمية إن وجد، وإلى مَنْ فهم كتبه المختلفة، استفاد.

* إلى تصانيف خلفاء الإمام في كلّ زمان. مثلاً: تصانيف العلامة شبير أحمد العثماني -، فإنه فهم الإمام حق الفهم. واستخدم في كتبه المختلفة بالحكمة القاسمية.

(51). الإمام قاسم النانوتوي-رحمه الله-، حجة الإسلام (الأردنية)، ، إكاديمية شيخ الهند، دار العلوم ديوبند، الطبعة الجديدة:

* إذا يطالعها أحد بنفسه، فعليه أن يلتزمها حتى يفهمها، ولا يفصل عنها لأجل صعوبة مضامينه؛ لأنه كثيراً ما تنشأ المناسبة، بكثرة المزاولة. ونقل عن الشيخ العثماني: أنه نشأت المناسبة مع كتب الإمام بعد قراءة بعض الكتب على أكثر أربعة عشر مرة.

* أولاً تطالع وتحلّ مضامين وإصطلاحات المنطق، والفلسفة، ثمّ تطالع كتب الإمام.

* إن صعب فهم مضمون في كتاب، فيبحث ذلك المضمون في كتابه الآخر، لأن المضمون الجمل، يفصله في كتاب من كتبه.

فعلى كلّ من أراد أن يستفيد من كتبهم أن يحافظ على هذه البنود، وكلّ ما يقربه إليهما ينصره في عمله. الآسن نذكر مسائل كلامية على وجه النموذج، لا على سبيل الاستيعاب؛ ليسهل على المستفيدين بعلم الكلام للنانوتوي -.

النماذج

إن احتواء جميع مسائله الكلامية يحتاج إلى كتاب مستقل. ولا بدّ أن يكتب شيء على هذا الموضوع كالدليل لمن أراد أن يؤظف في هذا المجال. كما جمعت فهارس جميع المسائل الكلامية، الواقعة في كتبه المختلفة لبعبة تحقيق المقاصد. نعم! نريد أن نقدّم الآن عدّة نماذج لبعض المسائل الهامة. وإليكم التفصيل. من المعلوم أن خلاصة الإسلام ثلاثة أشياء: التوحيد، والرسالة، والآخرة. لذا نختار هذه المسائل للبيان. فنذكر فيما يلي خلاصة ما قال الإمام في هذه القضايا في كتبه المختلفة.

مسألة وجود الباري:

نتبع في هذه المسألة منهج الشيخ بدر الحسن القاسمي، الذي جمع ونقّح هذه المسألة في مقالته، مقتبساً من كتب الإمام المختلفة لتسهيل، وتوضيح، مع اختصار، و زيادة حسب اقتضاء المقام. إن مسألة وجود الباري من أهم المسائل عند جميع الحكماء، والفلاسفة. فتفصيل هذه المسألة عند الإمام كما يلي:

الدليل الأول: الاستدلال بالمصنوع على وجود الصانع:

اتفق جميع العقلاء على أنّ لكلّ مصنع، صانع. ولكل حركة، محرّك، ولكل نظام، منظم. مثلاً: لما نرى عمارة أو منارة، فنعتقد ونقول بلا تردّد، وارتياب أنّ لهذه العمارة أو المنارة صانع، صنعها. فلما ثبت هذا: فانظروا إلى هذا الكون، فيه الأرض، والسماء، وفيه الكواكب، والسيارة وغيرها من المخلوقات لا تحصى، ولا

تعدّ. هل يمكن أن توجد هذه كلها بغير صانع و مُوجد؟ كلا! بل له صانع، حكيم، قدير، مقتدر وهو الله في اصطلاحاتنا.⁽⁵³⁾

الدليل الثاني: الاستدلال بزوال وجود الإنسان على وجود الموجود الأصلي:

إنّ وجود كل شيء يوجد في هذا العالم ليس بذاتيّ، بل هو عرضي؛ لأنه لا يستقرّ على حالته. فانظر إلى وجود الإنسان: فوجوده ليس بمستمر؛ لأنه ما كان في الأزل، ولا يبقى إلى الأبد، بل يطرأ عليه العدم وقتاً من الأوقات. فكما أن الحرارة في الماء، والنور في المرآة ليس بذاتيّ، بل تنتهي الحرارة إلى النار، وينتهي النور إلى الشمس، كذا وجودنا ينتهي إلى ذاتٍ، وجوده ذاتي، لا يستفيد الوجود من الغير، وهو الموجود الأصلي، الذي أعطى الوجود كلنا، وهو الذي يقال "الله".⁽⁵⁴⁾

الدليل الثالث: الاستدلال باختلاف الأحوال على وجود الله 1:

أن هذا الكون ما زال في اختلاف، فحين ننظر إلى هذا العالم، يبدو لنا أن العجز، والذلة، والاحتياج يترشّح من كلّ شيء موجود، فمثلاً انظر إلى السماء، والقمر، والكواكب، ليست هذه بمستقرة على حالة، بل يطلع حيناً، ويغرب حيناً، يصعد وقتاً، وينزل وقتاً آخر، ينير دهرًا، ويظلم آخر. وانظر إلى النار، يحرق زماناً، ويطفأ آخر. وإلى الرياح قد تنطلق، تهدء و تهبّ من شمال إلى جنوب مع عكسه، وتجري من شرقٍ إلى غربٍ مع عكس، وقس عليه كل شيء. فجملة القول أنّ كلّ موجود لا يستقل، ولا يختار كل شيء، بل يحتاج كلّ منها إلى مختار كلّّي، يقدر على أن يفعل ما يريد، متى يريد. وهو "الله".⁽⁵⁵⁾

الدليل الرابع: الاستدلال بأصول قبولية رأي الجمهور:

إذا اختلف الناس في قضية، فيعتمد العاقل الذكيّ على عقله، ويتبعه الآخرون. حينما يكون مساوين في العقل، فيرجحون ما ذهب إليه الجماهير. هذا أصل، يتفق عليه العالم كلّهُ، سواء كان مسلماً، أو مسيحيّاً، أو يهوديّاً، أو هندوكيّاً. فإذا تقرر هذا، فاعلم أن مسألة وجود الباري، مسألة مسلمة عند جماهير أهل العالم، ما خلا شرذمة قليلة. فيثبت أيضاً حسب هذه القاعدة، وجود الباري 1.⁽⁵⁶⁾

(53). الشيخ بدر الحسن القاسمي، مولانا محمد قاسم نانوتويّ اور جديد علم كلام - الإمام محمد قاسم نانوتوي، وعلم الكلام

الحديث - حجة الاسلام الامام محمد قاسم نانوتويّ: حيات، افكار، خدمات- أي الإمام النانوتوي: حياته، أفكاره، خدماته- (تنظيم ابناء قديم دار العلوم ديوبند، نئی دهلی ۲۵، سنة الطبع: ۲۰۰۵): ص 169

(54). أيضاً: ص 170-172

(55). الإمام محمد قاسم النانوتوي، تلخيص ما في تقرير دلبيذير- أي المحاضرات الآسرة للقلب-، أكاديمية شيخ الهند، الجامعة الإسلامية، دار

العلوم/ ديوبند، سنة الطبع: 2010م/1331هـ، ص 25-28

(56). أيضاً، ص 29

مسألة التوحيد:

هذه مسألة، تظهر فيها ميزات الإسلام، هذا المقام الذي يزلّ قدم جميع المذاهب، فنلخص الآن هذه المسألة من كتاب "تقرير دلبذير" حسب ما وضّحه الشيخ العثماني - في كُتَيْبِهِ "الإسلام".

الدليل الأول: أيها المستمعون! لو كان هنا إلهان إلا الله، لفسد هذا العالم كلّهُ، ولم يوجد أيّ موجود؛ لأنه مما يسلم أن الإله، ليس فيه نقص، ولا عيب، وإلا لا يفصل هو عن العامي، لأنه يجرم من كونه إله؛ لأنّ فيه نقصات، وعيوب.

وإن كان إلهان، فيه صورتان:

(أ) أن المخلوقات على نصفين، نصف لإله، ونصف آخر لإله آخر. فالألوهية تنقسم في الاثنين، والتقسيم نقص. وقد مضى أنه ليس في الإله نقص، ولا عيب. فهذه الصورة باطلة؛ لأنها تستلزم البطلان.

(ب) إنّ كلاًّ منهما يملك كلّ الألوهية، فيقع التأثير منهما كاملاً. فيقع الوجود منهما كاملاً في موجود واحد على وفق ظرفه، ففي كلّ موجود وجودان كاملان. فيما نرى أنّ ظرفاً لا يسع إلا ظرفاً مثل مقداره، ولا تسع ياردتان في ياردة واحدة، لا يسع صاعان في إناء يستطيع صاعاً. فكذا لا يسع وجودان كاملان في موجود واحد، بل يفسد الموجود في هذه الصورة، فكون الإلهين باطل.⁽⁵⁷⁾

الدليل الثاني:

أنّ الوجودين اللذين يوجدان في موجود واحد من إلهين، يجبران أنّ وجوداً يصدر عن أحدهما، لا يوجد في خزانة الآخر، فثبت النقص فيهما أيضاً. والحال أنه منزهة عن كلّ نقص، وعبء. فجميع المخلوقات تحتاج إليه، ولا يحتاج هو إلى شيء منها. وهو الأصل، مرجع الكلّ، البواقي فرعه. فالنور قد يكون في مكان، يكون في مكان آخر، لكن يرجع إلى أصل واحد، وهو الشمس، والعدد سواء يجري إلى لا إلى النهاية، لكن أصله هو عدد "الواحد". الأغصان المختلفة أصلها، جذر تلك الشجرة. وكذا نحن المسلمون، واليهود، والنصارى، والهنداكة أقوام مختلفة، لكن يرجع كلّهم إلى أصل واحد، وهو الإنسانية. وكذا نحن الإنسان، والبقرة، والغنم، والكلب وغيرها من الحيوانات كلّها مختلف في ذاته، لكن يرجع إلى أصل واحد، وهو الحيوانية.

(57). محمد شبّير أحمد العثماني، الإسلام، [مقالات عثمانى اي مجموعة مقالات العثماني]، (دار المؤلفين، يوبي، سنة الطبع 2009)،

هذه الحيوانات، والأحجار، والنباتات وغيرها، كلّها مختلفة في حقائقها، لكن يرجع كلّها إلى أصل واحد، وهو الجسمية. وهكذا يجري إلى ما لا نهاية. حتى جميع الموجودات، التي يختلف بعضها عن بعض، فمرجع كلّها الوجود، وهذا وهو الله. (58)

مسألة الرسالة:

من المسلمّات أن الله 1 خالقنا، ومالكنا جميعاً، ومطاعنا. فلا بدّ من طلب رضاه، واجتناب عن سخطه. وهما لا يدركان بدون الاطلاع عليهما. ونحن البشر لن نطلع بعضها على ما تكنه قلوب بعضنا الآخرين، وإذا كان كذلك فكيف بنا فيما يتعلق بما في قلب الله 1، فلا نستطيع أن نطلع على ما يتعلق برضاه وسخطه، إلّا باطلاعه هو إيّانا عليه. فاختار الله 0 أشخاصاً يتولون تبليغ أحكامه، ورسالته عباده وهم الذين يسمّون رسلاً وأنبياءً. (59)

وإنّ عماد هذا العباد ثلاث فضائل: الأولى الإخلاص لله 1، وحبّه حبّاً يحول دون مجرد الوهم بمعصيته؛ الثانية: الخلق العظيم، وهو أن يعامل مع غيره حسب أخلاقه، فإن كانت حسنةً فالمعاملة حسنة، وإن كانت سيئةً فالمعاملة سيئة. والثالثة: فضيلة العقل والفهم؛ لأنّ قلّة الفهم عيب كبير. فكلّ الأنبياء متّصفون بهذه الصفة، ونحن نؤمن بهم جميعاً، إلا أننا نفضّل محمداً. لأنّ أفضليته ثابتة بالعقل والنقل. كما أنّ الإمام النانوتوي – وازن بين معجزاته، ومعجزات الأنبياء الآخرين تفصيلاً، فأثبت نبوّته أفضل من نبوة الآخرين.

مسألة الآخرة

الدليل الأول: إنّ الأشياء التي تتركب من أجزاء ذوات أغراض مختلفة، تقطع وتكسر وتفرّق أجزاءه آخر الأمر؛ فيصل كل جزء إلى موضعه الملائم به، ويستخدم فيما يليق بشأنه. ثمّ إذا تأملنا في هذا العالم –عالم الأجسام–، وجدنا أنه مركب من أجزاء ذوات أغراض مختلفة أيضاً. فالأصل المذكور يقتضي أن يهدم هذا العالم في يوم من الأيام، وتفرقت أجزائه حتى تصل أجزاءه إلى موقعها اللائق بها. ومن أجزاءه المحسنون،

(58). أيضاً. ص 41، 42

(59). محمد ساجد القاسمي، تعريب حجة الإسلام للإمام محمد قاسم النانوتوي، أكاديمية شيخ الهند، الجامعة الإسلامية دار العلوم/ ديوبند،

الطبعة الأولى: 2007م/1427هـ، ص 13. تلخيصاً

والمسيئون، وموقع المحسنين، النعيم، وموضع المسيئين، الجحيم. فوصولهم إلى موضعهم الذي يليق بهم، يسمّى بالثواب والعذاب.

الدليل الثاني: إذا ألقينا نظرنا على العالم بأسره، فوجدناه يشبه الجسم الإنساني أو الحيواني، فكما أن الجسم له عيان، وأذنان، ويدان وأعضاء أخرى، فكذا العالم فيه أرض، وسماء وأشياء أخرى.

كما أنه إذا تغير مزاج الإنسان بغلب خلط من الأخلاط الأربعة، يُسمّى مرضاً. وإن فارقت الروح لأجله الجسم، يعبر عنه بالموت. فكذا العالم إذا تغير تركيبه الأصلي بتغير أركانه التي لها دخل في تركيب العالم، - ومن ركنه العدل بين الناس، والمنع عن الشهوات - وظهرت عليه حالة جديدة، فهو شرط من أشراف الساعة، وإن فارقت الروح الأعظم من مجموعة العالم، يُسمّى بقيام الساعة.

كما أن الجسم الإنساني تتفرق أجزائه بعد الموت، كذا يجب أن تتفرق أجزاء العالم بعد مفارقة الروح العظمى إياه. كما أن كل جزء من أجزاء الجسم الإنساني، يصل بعد تفرقها، إلى الطبقة التي تليق بها، كذا يلزم أن يصل كل جزء من أجزاء العالم بعد تفرقها إلى طبقته؛ فدخول المحسنين الجنة، والمسيئين النار، يُسمّى الثواب والعذاب.

الدليل الثالث: كما أن نرّو الحمام يولّد البيضة، ثم يخرج منها الفرخ، وهو يصير في يوم من الأيام حمامة. فالابتداء هو النزو، الذي هو من قبيل الأوصاف والمعاني، والانتهاء هو ظهور تلك المعاني في صورة الحمامة. فكذا أن هذا العالم ما زال في نشوٍ ونموٍ، الذي هو من قبيل المعاني والأوصاف، وفيما نرى هذا العالم في صور مختلفة، مظاهر تلك المعاني، فينبغي أن تظهر تلك المعاني في صورة غير صور نراها. هذا هو يوم الساعة.⁽⁶⁰⁾

الملاحظة: إذا نرى إلى منهج هذه المسائل، تبدو لنا، أنه يشتمل أكثر الدلائل على الحسيات المسلمة، والمشاهدات المحققة، حتى لا يسع للمخاطب أن ينكرها، إلاّ لم يرد الله به خيراً. هذه الدلائل، تبقى على حالتها إلى الأبد إن شاء الله 1، مع أنه لا تضّرّ نهضة الفلسفة الجديدة إلى الأمام مهما يمكن.

هذه مسائل مقتبسة من كتب الإمام المختلفة، ذكرت أتمودجاً فقط، كي يسهل على الناشئين العمل على كلام الإمام النانوتوي -.

الاختتام:

بهذه المعطيات المذكورة، ظهرت أن للإمام النانوتوي إسهامات في علم الكلام الجديد، لا تنكر، بل أنه موجد علم الكلام الجديد، لإبداع طريق فيه، لم يسبق إليه أحد قبله. كما قال العلامة شبّير أحمد العثماني: أنه

(60). الإمام محمد قاسم النانوتوي، إنتصار الإسلام (بالأردية)، مكتبة دار العلوم/ ديوبند، ص 35-40. خلاصة ما فيه.

أوجد طريقاً أنيقاً لعلم الكلام.⁽⁶¹⁾ ويشرح الشيخ العثماني "الطريق الأنيق" في موضع آخر من نفس الكتاب، بأن الإمام النانوتوي - قَرَّب الأسرار النظرية إلى حدود البدهة.⁽⁶²⁾ وهذه حقيقة، لانزال تبقي مفخرةً لنا إلى الأبد إن شاء الله تعالى.

لكن تجب علينا نحن أبناء الإمام النانوتوي روحياً، مسؤوليات جمّة نحو هذه الثروة العلميّة، بأن نتعلمها أولاً، ونُعلّمها أصحابنا في هذا السفر العلمي، ونبلّغها إلى من وراءنا، ونسهّلها لمن يصعب عليه فهمها، ونشرح مشكلاتها، ونطبق بالفلسفة الجديد، والعلوم الجديد، ونفسرها حسب مقتضيات عصرنا. وبهذه الأمنيات أختتم مقالي على توصية قيّمة للشيخ محمود حسن الديوبندي المعروف بـ"شيخ الهند" - وهو يوصي أبناء الفكر الديوبندي:

«مع وضع المقررات لتأييد أحكام الإسلام، والدفاع عن الفلسفة القديمة، والجديدة موقعها، يصرف أوقاتهم التافهة في مطالعة تصانيف الإمام - بكلّ التدبّر، والتفكّر. ثمّ لينظر بنظر الإنصاف أهي من أحسن التدابير، وأخصرها، وأفيدها من جميع التدابير أم لا؟».⁽⁶³⁾

An Islamic Think-tank

(61). العثماني، الإسلام: ص 40

(62). أيضاً، ص 49

(63). النانوتوي، حجة الإسلام، ص 16، وهذا القول للشيخ محمود حسن الديوبندي في مقدّمة نفس الكتاب.